إسهامُ الإمامِ الباقرِ عليه السلام في تكشيفِ المعرفةِ القرآنيّةِ - دراسةٌ تحليليّةٌ

الأستاذ الدكتور
رحيم كريم عليَ الشريفيَ
جامعة بابل ـ كلية الدراسات القرآنيَة
ansamemad@yahoo.com

لا جرمَ أنّ أهل البيت عليهم السلام همُ الراسخون في العلم، والمرجعيّة الكبرى للأمّة، حرثة القرآن وحملته، ولما كانت معارف القرآن المتكاملة مخزونة في كتاب الله (عزّ وجلّ)،جاء هذا البحث من أجل تكشيف هذه المعارف والعلوم من لدن باقر علوم الأولين والآخرين الإمام الباقر عليه السلام، ويبدو أن هذا التكشيف الذي يروم الباحث الحديث عنه، يتناغم مع التبقير الذي هو من تجليّات لقب الإمام الباقر عليه السلام.

من هنا فإن البحث سينطلق من قولة الإمام الباقر عليه السلام: ((إن القرآن حيًّا لا يموت، ولو نزل في رجلٍ ومات الرجل لمات القرآن)) فقد أعطى الإمام الباقر عليه السلام للقران الكريم مدياته وتخومه، فالقرآن متحرك يسير مع حركة الإنسان بلا توقف، فمعارفه تتناغم مع الواقع وتسايره، وجعل الإمام عليه السلام للوجوه والبطون التفسيرات الواضحة البيان فضلًا عن ذلك فالإنتاج المعرفي في ظلّ تفسيراته معمل لا يتوقف.

حقًا وصدقًا حارب الإمام الباقر عليه السلام كلّ الأفكار المنحرفة، والتصورات المخطوءة والشاذة التي تدعو إلى تحجيم المعرفة القرآنية وتجميدها.

وهذا المبحث هو مبحث يقع ضمن كتاب يعكف الباحث على تأليفه يتعلّق بفلسفة الإنتاج المعرفيّ في القرآن الكريم عند الإمام الباقر عليه السلام، وبعد استقراء المادة المجموعة ولملمتها، اقتضتْ طبيعة البحثِ أن تكون في ثلاثة مطالبَ.

في المطلب الأول كان الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام بوصفه اللمّاح الأكبر والكشّاف الأعظم في ظلّ تحليل دلالات لقبه المبارك (الباقر)، وجاء المطلب الثاني في التكشيف العقديّ في القرآن الكريم، والثالث: التكشيف الأخلاقيّ والتربويّ.

المطلب الأول

الإمام الباقر عليه السلام والمعرفة القرآنيّة

إن استنطاق المعرفة القرآنية من لدن الإمام الباقر عليه السلام لا يعني أن المعرفة القرآنية غير مستجيبة لاختبارها اختباراً لغوياً منغلقاً، أو أنها غير متفاعلة مع مصادر المعارف الأخرى.

فالمعرفة القُرآنية تمثّل المعرفة الخالصة التي مردُّها القرآن الكريم، هذه المعرفة التي تتجلّى لنا في ضوء فَهْم الخطاب القرآنيّ الذي هو خطاب عقلي مقدّس، يمنح من المصدر الإلهي العظيم يقول محمد عابد الجابريّ: ((والمشروعية التي كان يحتكم إليها الإسلام على عهد النبي لم تكن ظلامية ولاغيبية، بل كانت واقعية عقلانية إن الخطاب القرآني هو خطاب عَقْل، وليس خطاب غنوص أو عرفان أو إشراق))[1].

إن الربط بين القُرآن والمعرفة هو ربط منطقيّ قارٌّ بلحاظ أن القُرآن هو منهج إنساني متكامل فهو يمثّل مكنزاً حضارياً ومحضناً فكرياً عظيماً للمعارف سواء أكانت بنحو مُفَصل أم بنحو مجمل.

فقولنا: المعرفة القرآنية هو إطار مفهوميّ لمرادنا، بمعنى: أن القُرآن الكريم يؤسّس للمعرفة، وليس هو معرفة الشيء كلمة كانت أم منظومة، أم تقنيّة بقدر ما هو ما ينبثق عن تلك الأشياء ومعرفتها من اجابات حوال السؤال الأزلي الذي تختزله العبارة الآتية، ما لمعرفة؟ وفي ضوء هذا التحديد إجابة معرفيّة تتجاوز أطر المحدودية، والجزئية إلى الشمولية والكليّة المعرفيّة، وتأسيساً على ذلك تكون الصفة (القُرآنية) النابعة لكلمة (المعرفة) محّدداً دلالياً وثقافياً، إنَّ ذلك المحدّد المعرفيّ العام (المركب الوصفيّ) (المعرفة القُرآنية) معنيّا بالبحث والمتلوّمة، أما المستويات الجزئية للمعرفة التي تشكل قضية لغويَة أم قضية فقهية أم قضية ثقافية أم قضية اجتماعية، أم قضية علمية فتنداح ضمن ذلك المستوى الكلّي وترتبط به ارتباطاً وثيقاً ارتباط المصداق بالمفهوم، والمظهر بالظاهرة، والمثال بالحقيقة[2].

ويبدو أن المعرفة القرآنيّة لا نستطيع تعرفها من خلال أمرها وإنّما نتعرّفها من القرآن نفسه، قال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (ابراهيم/١) من ظلمات الجهل اي نور، ومن الخرافة والاسطورة الى الحقيقة والادراك، ويعرف بالميثاق بين الله

والعبد من دون واسط قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ (ال عمران/١٨٧)، وقال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة /١٥-١٦)، وغيرها من الآيات القُرآنية.

وكانت لأهل البيت عليهم السلام إسهامة في تكشيف هذه المعرفة القُرانيّة الجليلة، في ضوء التفسير العقليّ والواقعيّ للمنظومة القرآنيّة من جهة، وربط هذه المعرفة بالواقع من جهة اخرى، هذا التكشيف الباهر والمعجب كان له مُكنة وسُهمه في حركة المجتمع في جانب، وإضاءة الفهم القُرانيّ من جانب آخر.

ودونكم خطبة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام من خطبته وفيها يعظ الناسَ ويبيّن فضل القرآن والنهي عن البدعة، قال: ((انتفعوا ببان الله، واتعظوا بمواعظ الله واقبلوا وصية الله))[٣] وقال عليه السلام: ((وأعلموا أن هذا القُرْان هو الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يضل يهدى أو نقصان من عمى))[٤].

وتتجلّى المعارف القُرآنيّة باستنطاق النصّ القرآنيّ في ظلّ الأوصاف والنعوت الطيبات للقرآن الكريم على لسان سيّد الساجدين الإمام السجاد عليه السلام في صحيفته السجادية ولاسيما في دعائه الثالث والعشرين عند ختم القرآن، فالأوصاف تتابع والنعوت تترى له، قال عليه السلام ((اللّهمّ، إنك أعنتني على فهم كتابك الذي أنزلته نوراً وجعلته مهيمنًا على كل كتاب أنزلته، وفضّلته على كلّ حديث خصصته وفرقته بين حلالك وحرامك، وقرآنًا انزلته اعربت به عن شرائع احكامك وكتاب فضلته لعبادك تفضيل، وصيا انزلته على نبيك محمد صلواتك عليه وال تنزيلا وجعلته نورا تهتدي به من ظلم الظلال والجهال الريا اتباعه والشفاء لمن انصت بهم من النصرين الى استماعه وميزان خبط.... ونور الهدى.. وعلم النجاة لا يضل من ام قصد بسنته))[٥].

ولما كان الإمام الباقر عليه السلام من خزّان القرآن[٦]،وحرثته[٧] فإننا نلمح التكشيف الباهر في ظلّ كلماته البليغة، وعباراته الانيقة ومروياته الحكيمة، لأنه يمثل مرجعية كبرى وإمامًا معصومًا من أئمة أهل البيت عليهم السلام إذا أظهر هذه المعارف القرآنية مستنطقا إياها مظهرا

تجلياتها واوصافها كاشفا عن وجودها وبطونها، لأنه يرى أن القران حي لا يموت بتناغم الواقع يسايره.

حقًّا وصدقًا أعطى الإمام الباقر عليه السلام للقرآن حرياته وتخومه، لأنه يرى أن القرآن متحرك يسير مع حركة الانسان لا يتوقف، إن معرفته القرآنية هي سر إعجازه، فهو لا يعرف التوقف ولا السكون فالإنتاج المعرفيّ في كتاب الله (عز وجل) بحسب رؤية الإمام الباقر عليه السلام ودونك مرويته الإرهاصية التي تكشف منها عن صورة القرآن وانه يساير الامامة والمكانة، وانه يجري مجرى الشمس والقمر قال عليه السلام ((إن القرآن حيّ لا يموت، ولو نزل في رجل ومات الرجل لمات القرآن ولكنه هي جارته في الباقين كما جرت في الماضين))[٨].

وهذا الفهم والتصور فطن عليه الطباطبائي، اذا يرى ان اهل البيت عليهم السلام يطبقون الآية من القرآن على ما يقبل أن ينطبق عليه من المورد، وان كان خارجا عن مورد النزول، والاعتبار يساعده، لأن القرآن نزل هدى للعالمين يهديهم الى واجبِ الاعتقاد وواجب الخلق وواجب العمل، وما بينه من المعارف النظرية حقائق لا تختص بحال دون حال ولا زمان دون زمان، وما ذكره من فضيلة أو رذيلة أو حكم عمليّ لا تتقيد بفرد دون فرد ولا عصر دون عصر لعموم التشريع[٩]، فالآية المباركة لا تتجمد في النقطة التي انطلقت منها ونزلت منها[١٠].

لا جَرَم أن كلمات الله (تعالى) تامة، وكريمة وهذا ما نرقبه في الدعاء المروي عن الإمام الباقر عليه السلام في شهر رمضان وهو من ادعية السحر (دعاء البهاء)، ((اللهم إني اسالك من بهاءك بأبهاه وكل بهاءك بهي (....) اللهم أني أسالك بكلماتك بأتمها وكل كلماتك تامة (...) اللهم اني اسالك من آياتك بأكرمها وكل آياتك كريمة))[١١]، لا نبالغ إذا قلنا انه دعاء المعرفة الإلهية والقرآنية الخالصة، إذا يقر اسرار المعرفة القرآنية، وكشف الحقائق الإلهية.

عَلِم الإمام الباقر عليه السلام أن الشمولية المتعددة الجوانب والموحدة النسيج في النظام المعرفي للدين لا تشاهد سوى في القرآن الكريم وأن ((التفسير والتوضيح للسنة المقطعية والمعارف الدنية التي تنتج تحت هذا السقف مع السيادة الشاملة لمحكمات القرآن وقوانينه المتقدمة الجوانب والمتقدمة الابعاد تتلائم مع واقع المجتمع ومعطياته الدائمة التفاعل والتبادل))[١٢].

ويتكشف هذا الفهم الباصر والمعجب من لدن الإمام الباقر عليه السلام في ظل جوابه عليه السلام لسؤال جابر بن زيد الجعفيّ، حينما رأى اختلاف جواب الإمام عليه السلام في تفسير القرآن، فقال عليه السلام: ((يا جابر إن للقرآن بطنًا وللبطن بطنًا وظهرًا (وللظهر ظهرا (....) يا جابر، وليس شيءٌ وآخرها في شيءٍ وآخرها في شيءٍ وهو كلام متصل ينصرف على وجوه))[١٣].

وبعد هذا المتقدم نستطيع القول: إنَّ الإمام الباقر عليه السلام من روّاد التفسير المقاصدي لموضوعات القرآن الكريم، سواء أكانت العقدية منها، أم التشريعات، أم القيم التربوية والاخلاقية إذ يعد اللّماح الاكبر والكشاف الباهر في تكشيف مقاصد القُرآن الكبرى ومعارفه العظمى (العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق)، ومن هنا لابد من القول: إن الناظر في التراث الباقريّ يستوقفه الثراء المعرفيّ، وثراء المداخل التي انبرى من خلالها الإمام الباقر عليه السلام الى معاينة الآليات التي تتشكل منها المعارف القرآنية، ولما كانت هذه المعارف كثيرة ومتنوعة، لارتباطها بالدرس القرآنيّ نفسه كان لزاما علينا ان نتموضع في كل كلية في كليات القرآن الكريم وهذا ما سيتولى المطلبان الثاني والثالث بيانه.

المطلب الثاني
التكشيف العَقَديّ في القرآن الكريم

قبل أن نتناوش التكشيف العقدي في القرآن الكريم من لدن الإمام الباقر عليه السلام لدينا وقفة نخال انها مهمة، وهي أن كلام الله (جلّ جلاله) في كتابه العظيم (القُرْان الكريم) لابد ان يكون ممثلا لصفاته (جل جلاله)، فكلامه بلا شك - غير كلام البشر، من هنا فإن إعجازية القُران الكريم تتجلى في كونه كلام الله تعالى، وانها الصادر بكماله وتمامه الى المتلقي الأول نبينا محمد صلى الله عليه وآله ففيه ايضًا، إثبات لنبوته صلى الله عليه وآله من هنا أرى أن يكون الاعجاز في الدرس العقدي لافي مباحث علوم القرآن.

فقد عُرف عن الإمام الباقر عليه السلام الأثر العظيم في علوم التفسير والفقه، والاصول، وغيرها من العلوم الاخرى التي خدمت القرآن الكريم، إذا امتاز بشخصيته المتميزة بين الناس وبين الأوساط العلمية في عصره لا يذكر العلمُ في مناسبة أو مكان إلا وذكر معه عليه السلام.

وقد تناول الإمام الباقر عددا غير قليل من الآيات القرآنية التي تتعلق بالقضايا الالهية والتوحيد والغيبة قبل قضية بدء الخلق وأخذ الميثاق واليوم الاخر، وعدداً آخر من الآيات في

بيان أصل التوحيد، ونفي الصفات، وما يتعلق بالنبوة والوحي وأقسامه، فقدم فيها جُهْدا علميا رفيعا في الكشف عن مفاصلها، فقدم فيها جهدا علميا رفيعا في الكشف عن مفاصلها المعرفية في ضوء مشاركته في التفريق بين الرسول والنبي(١٤).

وترى الباحثة الرزينة لالاني أن الإمام الباقر عليه السلام عاصر مرحلة حرجة في التاريخ الإسلامي إذ كانت دراسة القرآن الكريم تشكل اهتماما اساسيا، وقد اتخذت بعض الخطوات لإنشاء خط اكثر ملائمة من اجل الحفاظ على النص القرآني بعيدا عن أي تحريف أو تشويه(١٥).

وقد أسهم الإمام الباقر كذلك في تجلية العقائد الدينة المتعلقة بـ(الإيمان)، (القضاء والقدر)، ووحدانية الله فضلًا عن الكثير من الموضوعات الأخرى التي كانت موضع نقاش ومناظرة ساخنين في زمانه في جّو ثقافيّ متردٍ وتيارات سياسية أبعدت المجتمع عن التمسك بالعترة الطاهرة فأدّى ذلك إلى أن يصبح القرآن الكريم مرجعًا مهمًّا يشكّل المحكّ لعرفة الأحكام الصحيحة، لذا أكّد الإمام على أهمية القرآن ومكانته(١٦).

لقد أراد الإمام الباقر عليه السلام في ظل تراثه أن يضع اللمسات الناجعة لعلم الكلام الإسلامي (العقائديّ) بوصفه نتاجًا قرآنيًّا خالصًا، ومسارًا عقديًّا صافيًا، مبينًا أهمية هذا العلم، ومدى تأثيره في المجتمع، ومحاولة تغير خلّاق في الجسد التاريخيّ المتصل بالواقع والمتصل بالروح الكليّة المسيطرة على العقائد القرآنيّة التي لها أثر في أحداث الثورات الحقيقة والتحوّلات العظيمة في التبليغ والدعوة والإعلام.

وأول ما يلقانا التكشيف العقدي عند الإمام الباقر عليه السلام في ظلّ تفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة /٢١)، فعن علي بن ابراهيم قال: كتبت الى ابي جعفر عليه السلام، قال جعلني الله فداك نعبد الرحمن الرحيم الواحد الاحد الصمد، قال: إن من عبد الاسم دون المسمى بالأسماء اشترك وكفر وجحد ولم يعبد شيئا، بل اعبد الله الواحد الاحد الصمد المسمى بهذه الأسماء دون الأسماء، إن الأسماء صفات وصف بها نفسه(١٧).

وإن كتابه الله (عز وجل) دليل ناطق عنه، قال الإمام الباقر عليه السلام: ((ليس شيءٌ من

كتاب الله إلا عليه دليل ناطق عن الله في كتابه مما لا يعلمه الناس (....) إن للقرآن ظاهراً وباطنا وناسخا ومنسوخا ومحكما ومتشابها، وسننا وامثالا، وفصلا ووصلا فمن زعم أن الكتاب مبهم فقد هلك وأهلك))[١٨].

فالرواية واضحة الدلالة في كون القران من عند الله (تعالى) وتنفي عدم إمكان فهمه، ولا تنفى عدم حاجة القُرآن الكريم للتفسير، وزد على ذلك أن الإمام قد رصد علوم القُرآن المختلفة (ظاهر وباطن، أحرف، تصديق، وصل، فصل، ناسخ ومنسوخ) وتتجلى المعرفة القرآنية العقدية عند الإمام الباقر بلحاظ ما رواه السيد علي بن طاووس الحلي (ت٦٦٤هـ) في إقباله، وأن الإمام الباقر عليه السلام إذا دخل شهر يصلي أول يوم من ركعتين يقرأ لكل يوم منه إلى آخرة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في الركعة الأولى، وفي الركعة الثانية: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[١٩] والذي يتجلى أن الجمع بين الآيتين يمثل جمعا بين معرفة الله الوجدانية (التوحيد) وبين إنزال القُران الكريم وهما سورتا التوحيد (الاخلاص)، و(القدر) إذا تشكلان معرفة قرآنية عقدية واضحة الدلالة.

وتتعالى المعرفة القرآنية العقدية في كتاب الله (عزّ وجل) في أدب الإمام الباقر عليه السلام مستشرفا ذلك في مرويته المتصلة بنشر الصحف في ليلة القدر ورفعه فوق الرأس، قال عليه السلام: ((تأخذ المصحف في ثلاث ليال من شهر رمضان فتنشره وتضعه بين يديك، وتقول: اللهم، إني أسالك بكتابك المنزل وما فيه، وما فيه اسْمُك الأعظم وأسماؤك الحسنى وما يخاف ويرجى أن تجعلني من عتقائك من النار))[٢٠].

وتشعّ المعرفة القرآنية العقدية لدى الإمام الباقر عليه السلام في دعائه الذي هو أسرع من السهم النافد، في ظلّ سؤاله (عزّ وجل) بأسمائه في كتابه العزيز قال: ((اللهم، إني اسالك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أذ أنزلته في كتابك او علمته أحدا من خلقك))[٢١].

ونبصُر بالتكشف القُرآني العَقَدي المتصل برؤية الله (عز وجل)، إذ تقدم أحد الخوارج إلى الامام الباقر (عليه) مرّة وسأله، إن كان رأى الله، فأجاب الباقر عليه السلام: لم تره العيون بمشاهدة الابصار، ولكن رأته القلوب بحقائق، ولا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبه بالناس موصوف بالآيات، معروف بالعلامات، ولا يجوز حكمه ذلك الله لا إله إلّا الله وقال الإمام الباقر عليه السلام في تفسيره للآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أوهام القلوب

أدق من أبصار العيون أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها، ولا تدركها ببصرك، وأوهام القلوب لا تدركه، فكيف أبصار العيون))[٢٢].

المطلب الثالث

التكشيف التربوي والأخلاقي في القُرْآن الكريم

قلنا من قبل إن الإمام الباقر عليه السلام يمثل مرجعية كبرى، وإماما معصوما من أئمة أهل البيت عليهم السلام، إذ بلحاظ مروياته التفسيرية، وكلماته الحكيمة القصار، واقواله في أدعيته المباركة في ضوء استنطاقه لكلمات النص القرآنية أن يوظف مجموعة كبيرة من القيم الاخلاقية في أدبه المبارك.

ولما كانت تلكم القيم تمثّل إحدى الكلبّات القُرآنية الثلاث، تجلت في المنظومة التراثية الباقريّة عناية واهتماما كبيرين.

فقد عاش الإمام الباقر عليه السلام جُلّ حياته المباركة موجها الأمة مربيا ومرشداً وهايا، فكان القُدوة والمنار في السلوك والتصرف والخلق القويم، إذا لم يثبت في التاريخ ولو للحظة أنه تعرض لنقد من علماء الأئمة، ولم يتحدث أحدٌ باقتران صغيرة ولا كبيرة [٢٣].

ويرى الإمام الباقر عليه السلام أن كتاب الله (القُرآن) هو الأساس والمعيار في الكشف عن أخلاق الإنسان، وهذا ما نرصده في وصيته الخالدة لتلميذه جابر بن يزيد الجعفيّ، إذ جمع فيها القيم الأخلاقية الرفيعة، والمثل الإنسانية العاليّة السامية قال عليه السلام: ((أوصيك بخمسٍ: إن ظلمت فلا تظلم، وأن خانوك فلا تحن، وإن كُذبت فلا تغضب، وأن مدحت فلا تفرح، وأن ذممت فلا تجزع(...) وأعلم بأنك لن تكون لنا وليا حتى ولو اجتمع عليك أهل معرك، وقالوا: أنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا إنك رجل صالحٌ لم يسرك ذلك، ولكن اعْرض نفسك على كتاب الله، فإن كنتفي ترغيبه سالكا سبيله زاهدا في تزهيده، راغبا في ترغيبه، خائفا في تخويفه فاثبت وابشر فانه لا يضرّك ما قيل فيك)) [٢٤].

فالإمام عليه السلام يجعل القرْان الكريم الرائط والفيصل في كل ما يعظ الناس، وأنه الأساس في الكشف عن أخلاق المرء فأخلاقه تعرض على كتاب الله (عز وجل).

ومن هنا فإن الإمام الباقر عليه السلام يضع لنا قائمة عالية المضمون عظيمة البيان في أصناف

قُرّاء القُرْان هذه القائمة تضم ثلاثة عناصر، قال عليه السلام: ((قُراء القُرآن ثلاثة: رجلٌ قرأ القُرآن فاتخذه بضاعة واستجر به الملوك واستطال به على الناس ورجل قرأ القُرآن فحفظه حروفه وضبط حدوه، ورجل قرأ القرآن ورجل قرأ القُرآن فوضع دواء على داء قلبه فأسهر به ليله وأطمأنه به نهاره، وقام به في مساجده، وتجافى به عن فراشه فأولئك يدفع الله بهم البلاء (....) والله لهؤلاء من قراء القرآن أعز من الكبريت الأحمر))[٢٥].

إن تأكيد الإمام الباقر عليه السلام على المنظومة الأخلاقية القُرآنية العظيمة المتحدة الأركان والأجزاء، أدى إلى تقدم وتطور شامل للأبعاد الأخلاقية القُرآنية ومن ثم استجلاء المفاهيم القرآنية الأخلاقية الواسعة، التي تقود إلى اكتشاف الميادين والحقول الخصبة، وتنميتها ليكون الإنتاج العلمي الدينيّ ذا فاعلية واستمراريته، ومن ثم فإن مقولة الإمام الباقر عليه السلام: إن القرآن حي لا يموت مصداق عظيم في أنّ آيات العدل والقسط، والعمل الصالح، والصدق، والعفة، والعلاقات الاجتماعية، والأخلاق والآداب، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والعفو، والصفح، والوفاء بالعهد وغيرها لا معنى لها إذا لم تمناه في الواقع وتسيح في فضاء بعي عنه، من أجل ذلك فإن تجدد الآيات وغضاضتها يتحصل في الساحة الخارجية للواقع المعيش، والحياة الإنسانية.

وفي هذا الإطار فطن نجف عليّ ميرزائيّ للمزيّة الموضوعيّة المحوريّة في القرآن الكريم التي تسري وتتضوّع كالروح والنفس في جميع أركانه، وما صرّحت به الآيات القرآنيّة وكدت عليه من تلازم عالم الغيب بالشهادة، وترافق الإيمان العمل الصالح، وإنما هو مصداق واضح لهذا التلاحم بين عالم الذهن والفكر وعالم الموضوعية والواقع المتغير[٢٦]، ويتجلّى هذا الفهم القرآنيّ القائم على التماسّ المباشر بين عالم الشهادة والسلوك والمعارف الإيمانية مع عالم الغيب، في مرويات الإمام الباقر عليه السلام، ففي تفسير قوله تعالى (النساء /١٧) قال الإمام الباقر عليه السلام لمحمد بن مسلم ((يا محمدُ بن مسلم، ذنوب المؤمن إذا تاب مغفورة له فليعمل المؤمن لمله، أنها ليست يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله، إنها ليست إلا لأهل الإيمان قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار، من الذنوب وعاد في التوبة، فقال يا محمدُ بن مسلم، أترى العبد المؤمن ينم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله منه، قلت، فإن فعل ذلك مراراً يذيب ثم يتوبُ ويستغفر الله، فقال: كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة

عاد الله عليه بالمغفرة، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات فإياك أنْ تقنط المؤمنين من رحمة الله..))[٢٧].

ويعلو الدعاء بوصفه دائرة تربوية قرآنية، وعلاقة خالصة بين العبد وخالقه، فيرى الإمام الباقر عليه السلام أنَّ القنوت والذكر والدعاء، خير من كثرة القراءة، وهذا ما نلمحه في مرويته عليه السلام، ((ما رواه الحسن بن محمد بن السراء يرفعه إلى أبي جعفر عليه السلام أنه سئل، أيهما أفضل في الصلاة كثرة القراءة، أو طول اللبث في الركوع والسجود؟ فقال: كثرة اللبث في الركوع والسجود أما تسْمَعَ لقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ إنما عنى بإقامة الصلاة حول اللبث في الركود والسجود قال: اقلت: إيهما أفضل: كثرة القراءة أو كثرة الدعاء قال: كثرة الدعاء أما تَسْمَعُ لقوله تعالى ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[٢٨].

وقد حذّر الإمام الباقر عليه السلام من مزالق المتعلّمين وآفاتهم ولاسيّما في انتزاع الآيات القرآنية من سياقاتها، قال: عليه السلام ما علمتم فقولوا، وما لم تعلموا فقولوا: الله أعلم، إنّ الرجلَ لينتزع الآية من القرآن يخرُّ فيها أبعد ما بين السّماء والأرض).

ويدعو الإمام الباقر عليه السلام إلى التمسّك بالقرآن الكريم بوصفه الحبل المتين، وأنّه الشفاء والاطمئنان، فالتمسك به هو التمسك بالصفاء وراحة البال والسّموّ النّفسيّ، وهي مبادئ تربويّة وأخلاقيّة قال الإمام عليه السلام: (اللّهمّ، إنّي أسألك،(...) أن تصليَ على محمّد وآل محمّدٍ، وأن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي ونورَ بصري وجلاءَ حزني وذهابَ غمّي).

خاتمة البحث ونتائجه:

ونحن نقفلُ مطالبَ هذا البحثِ، لابدّ من تَقطاف أهمّ الثّمار التي ترشّحت منَ البحث، وهي:

الأولى: بدا لنا أنّ الإمام الباقر عليه السلام اللّماح الأكبر والاكتشاف الأعظم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، والإمام عليّ عليه السلام وآبائه عليهم السلام في الكشف عن المعارف القرآنيّة سواءٌ أكانت العقديّة أم العباديّة أم المعاملاتيّة أم التربويّة والأخلاقيّة.

الثانية: يعدّ الامام الباقر عليه السلام من المؤسسين للتفسير المقاصدي والأغراضي في القرآن الكريم، اذ استطاع ان يبقر المعارف القرآنية القطعية والثابتة والكلية المبثوقة في القران الكريم

التي تعد كليات الدين الاسلامي وابوابه الكبرى.

الثالثة: ظهر ان الامام الباقر عليه السلام قد استشرف المقاصد الكبرى للألفاظ القرآنية، في ضوء التعامل الكلي مع القران الكريم، بوصفه حياً لا يموت وان يجري مجرى الشمس والقمر، وهذا ما نلمس في مسالك الكشف التي ندت في كلماته المباركة (الاستقراء، الاستنباط، والاسترشاد).

الرابعة: يرى الامام الباقر عليه السلام ان القران معمل منتج لا يتوقف عن الانتاج والانجاز، وانه غض طري لا يعرف اليسوسة والجمود، وان التوالد والتناسل المستمر هو صفته الخالدة، وهذا ما نرصده في كلماته: (حي لا يموت)، له بطن وللبطن بطن وظهر ويجري مجرى الشمس والقمر وغيرها.

الخامسة: اراد الامام الباقر عليه السلام اغتنام المعارف القرآنية العظيمة سواء اكانت الالهية المتصلة بمعرفة الله (عز وجل) وصفاته، والعبادات والتشريعات، والاخلاق، والعلوم، والنظريات من اجل الوصول الى مراقي السعادة ومراتبها العليا سعادة الدارين الدنيا والعليا، فالقران يمثل قاعدة للنتاج المعرفي، ومنبعاً للسمو الانساني ومحضنا للعلم الرباني ومعقلاً للحكمة الالهية العالية.

السادسة: بدا لنا في ظل الوقوف على تراث الامام الباقر عليه السلام ان الامام قد اكثر من الاستشهاد القرآني سواء اكان استشهاداً قرآنياً نصاً ام غير مباشر، ام بيان المضامين والدلالات القرآنية فحسب، ولا يخفى ان هذا الاستدعاء القرآني قد اعطى للإمام الخوض في تكشيف المعرفة القرآنية المتنوعة في الكتاب الكريم.

هوامش البحث

(١) نحن والتراث، ٥٠.

(٢) ينظر، المعنى القُرآني بين التفسير والتأويل (دراسة تحليلية معرفية في النص القرآني) د. عباس أمير ١٣-١٤.

(٣) نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، تحقيق السيد هاشم الميلاني،٣١٣.

(٤) المصدر نفسه ٣١٤.
(٥) الصحيفة السجادية، الإمام زين العابدين، الدعاء (٢٣)
(٦) المصدر نفسه، الدعاء (٢٣) مصطلح ذكره الإمام زين العابدين عليه السلام.
(٧) نهج البلاغة، ٣١٥، مصطلح ذكره الإمام علي عليه السلام.
(٨) بحار الانوار، محمد علي المجلسيّ،٤٠٣/٣٥.
(٩) ينظر الميزان في تفسير القرآن، ٢١/١.،تفسير امومة الولاية والمحكمات للقران الكريم، الشيخ محمد السند ٣٣-٣٢
(١٠) من وحي القرآن محمد حسين فضل الله ٢٦/١.
(١١) الامثال السيد علي بن طاوس الحليّ (دعا اليها) ٣٣٥-٣٤٦.
(١٢) فلسفة مرجعية القرآن المعرفية في افتتاح المعرفة الدنية، نجف علي ميرزائي ٩٩/٩٨.
(١٣) تفسير العياشي، العياشيّ، ٢٣/١.
(١٤) ينظر الإمام الباقر عليه السلام وأثره في التفسير، ٤١١.
(١٥) ينظر الفكر الشيعي المبكر تعاليم الإمام محمد الباقر عليه السلام، ٢٦.
(١٦) ينظر تفسير القُرآن في حديث الإمام الباقر د. نهلة نائيني،١٤.
(١٧) الكافي، الكلينيّ ٨٧/١.
(١٨) وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، الحر العاملي ٢٧/١٩١.
(١٩) ينظر إقبال الأعمال،٣٦١.
(٢٠) المصدر نفسه، ٤٧٤.
(٢١) منهج الدعوات ومنهج العنايات، علي بن طاوس الحليّ، ١٦٤.
(٢٢) الكافي ١/٩٧،الانعام /١٠٣.
(٢٣) ينظر الإمام الباقر عليه السلام وأثره في التفسير، د. حكمت عبيد الخفاجي، ٩١.
(٢٤) تحف العقول عن آل الرسول، ابن شعبة الحرانيّ ٢٨٤-٢٨٥.
(٢٥) الخصال، الشيخ الصدوق، ١٦٤،١٤٢ وينظر، أمالي الصدوق، الشيخ الصدوق،١٨.
(٢٦) الكافي،٢/٤٣٤ وينظر البرهان في تفسير القرآن ١/٣٥٣.
(٢٧) فلاح السائل، علي بن طاوس، ٨٠.
(٢٨) المصدر نفسه، ٨٠.

قائمة المصادر والمراجع

وخير ما نبتدئ به القران الكريم

١- الأمالي الشيخ الصدوق ابو جعفر محمد بن علي (ت ٣٨١هـ)،ط١ مؤسسة البعثة قم المقدسة،١٤١٧هـ

٢- الامام الباقر واثره في التفسير الدكتور حكمت عبيد الخفاجي، ط١ مؤسسة البلاغ (دار سلوني) بيروت ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م

٣- بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الاطهار محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ) ط ٤ دار الكتب الاسلامية ١٤٣٢هـ

٤- البرهان في تفسير القران السيد هاشم البحراني الموسوي (ت ١١٠٧هـ) ط١ مؤسسة الاعلمي بيروت ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

٥- تفسير امومة الولاية والمحكمات للقران الكريم المحقق الشيخ محمد السند تقريران محسن الجصاني ط١، مطبعة قدس قم ٢٠١٣

٦- تفسير العياشي، أبو النضر محمد بن مسعود بن عباس (ت.د٣هـ) تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي،ط١،المكتبة العلمية الاسلامية، طهران د. ن.

٧- تفسير القران في حديث الامام الباقر (علية السلام)، الدكتورة نهلة غروي نائيني -- ط ١- مطبعة قدس، قم، ٢٠١٣م.

٨- الخصال، الشيخ الصدوق ابو جعفر بن بابويه القمي (تـ ٣٨١هـ)، منشورات جماعة المدرسين، قم المقدسة، د. ت

٩- الصحيفة السجادية، الامام علي بن الحسين زين العابدين، (تـ ٩٤ هـ)، جامعة المدرسين، قم المقدسة، ايران.

١٠- الفكر الشيعي المبكر تعاليم الامام محمد الباقر (علية السلام). الرزية لالاني، ط ١- دار الساقي – بيروت ٢٠٠٤ م.

١١- فلاح السائل - السيد علي بن طاوس (تـ ٦٦٤ هـ) انتشارات التبليغ الاسلامي، قم المقدسة، ايران.

١٢- فلسفة مرجعية القران المعرفية في انتاج المعرفة الدينية، نجف علي ميرزائي، مركز الحضارة للتنمية،ط١، بيروت ٢٠١١.

١٣- الكافي، ابو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، (تـ٣٢٩هـ) ط٣، دار الكتب الاسلامية طهران، ١٣٨٨هـ.

١٤- المعنى القرآني بين التفسير والتأويل (دراسة تحليلية معرفية في النص القرآني)، الدكتور عباس امير، ط١،دار الانتشار العربي بيروت ٢٠٠٨م

١٥- من وحي القران، محمد حسين فضل الله، ط٣ دار الاعلمي، بيروت ٢٠٠٣م.

١٦- مهج الدعوات ومنهج العنايات، رضي الدين علي بن طاوس الحلي، (٦٦٤هـ) ط١، منشورات الفجر، بيروت، ١٤٣٣هـ -٢٠١٢ م.

١٧- الميزان في تفسير القران، محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠١هـ) ط٣، دار الاعلمي، بيروت، ١٩٧٣م.

١٨- نحن والتراث، محمد عابد الجابري، مركز التنمية بيروت، ط٤، ١٩٩٧.

١٩- نهج البلاغة، خطب الامام علي بن ابي طالب (ت ٤٠هـ) تحقيق السيد هاشم الميلاني، دار المعرفة، بيروت.

٢٠- وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت١١٠٤هـ) ط٢، مؤسسة ال البيت عليهم السلام، قم المقدسة، ١٤١٤هـ.